

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

- ١٠ -

الفلسفة الهندية

البراهمة الأولى أو الأورموزوكسية

تشبه آلهة البراهمة الأولى بوجه عام آلهة الإغريق ،
إذ لا يخفى على الباحث - إذا أغضى عن الموازنة الدقيقة -
ما يلفت النظر من المشابهة الواضحة بين آلهة الفيدا ، وآلهة
الإلياذة ، و الأودسا ، تلك المشابهة التي لا تجعل مجالا
للتك في أن آلهة الكتابين من أسرة واحدة يتفقون جميعاً في
البساطة والطفولة وسرعة الغضب وسهولة العودة إلى الرضى
وفي الخلو من الحقد وسوء النية والآنانية والوحشية المتأصلة
في آلهة الآشوريين أو البابليين مثلاً ، وهم يتفقون كذلك في
القرب من صف الإنسانية كاستعانتهم ببنى البشر مثلاً في
الوصول إلى غاياتهم ثم مكافأتهم لإياهم بمحبتهم لهم
وعطفهم عليهم .

وما يلفت النظر في هذه المشابهة هو بساطة اختصاص
آلهة الفيدا ، كآلهة الإلياذة ، و الأودسا ، وخلوها
من التعقيد الذي كان فيما بعد من مميزات الديانة الأندوسمية ،
التي ظهرت بعد الفيدا بعدة قرون وكانت مزيجاً من الديانتين :
الفيدية ، والهندية المحلية القديمة ، ف أندرا ، مثلاً هو كبير
الآلهة وهو إله السماء والمناخ ، و رودرا ، و أجنى ، هما
صاحبا وساعدا على تصريف شؤون الكون . و جاما ،
إله الموت و أوسهاس ، إلهة الفجر . وهكذا كل إله له
اختصاص محدد ودائرة محصورة .

بره الخلق

تستقى البراهمية ، الأولى عقيدة بدء الخلق من أسطورتين
قديمتين فأما أولاهما ، فهي أن الإله « براجاباتي » هو في نفس
الوقت خالق ومخلوق ، لأنه كان في أول الأمر واحداً فاشتاق
إلى التكاثر وتمناه . فلم يكن من بقية الآلهة إلا أن أجابوه إلى
سؤله . فضحوه وقطعوه إرباً وشرؤا أجزائه في جميع البقاع ،
لتحقق هذا التوحد المنشود من جميع الأجزاء . وهذا الشوق
هو سر التجاذب الخفي الموجود في جميع عناصر الكون ،
وأنجع الوسائل لتحقيق هذه الغاية هي الضحايا التي يقوم بها
بنو البشر .

على أن الوصول النهائي إلى هذه الغاية لا يتحقق تماماً ،
لأن ما يجتمع من هذا الإله بوساطة الجاذبية الطبيعية من جهة
وبالضحايا المقدمة من بنى الإنسان من جهة أخرى لا يلبث
أن يعود إلى التفكك بعملية خلق جديد يتولاه هذا الإله بنفسه
من نفسه رغبة منه في إنشاء كرون وتكاثر وحداته . وستظل
هذه الدورة مستمرة كالحلقة المفرغة التي لا يمتاز مبدؤها عن
منتهاها إلى ما شاء الله أن يكون ، ولكن القرابين والضحايا
هي أهم أسباب هذا التجاذب الذي يقع بين العناصر المتناثرة
فيجمع شتاتها ، إذ هي العامل الأوحد الذي يضل بين الإله
والإناس من جهة وبين الأفراد بعضهم مع بعض من جهة
أخرى ، وأكثر من هذا أنها هي التي تعيد للإله قوته بعد
تفككها بسبب تناثر أجزائه .

هذه هي الأسطورة الأولى في عقيدة بدء الخلق ، أما الثانية
فهي أن الإله « براجاباتي » أحس يوماً بشغف مادي شديد
نحو ابنة أوسهاس ، إلهة الفجر الجميلة فأبدى لها هذه الرغبة
فارتاعت منها ارتياحاً شديداً وفرت من وجهه مذعورة ، فتعقبها
وأخذ يرقب حركاتها ، فكلما تشكلت بأشكال من الكائنات
تشكل هو بصورة ذكر هذا الكائن ، وظل على هذه الحال حتى
استولى عليها ونال منها بغيته ، فحملت لساعتها بأول أفراد هذا
العالم الموجود .

وردة الوجود

كان من نتائج الأسطورة الأولى أن سرت في تلك البلاد

المفتوح حيث فرضوا تعاليمه على الوطنيين فرضاً . وإذا ، فهو لا يمثل العقلية الهندية ولا بصور المدينة القديمة التي كانت زاهرة في تلك البلاد قبل وجوده فيها بأكثر من خمسة عشر قرناً كما أسلفنا ، بل بالعكس كثيراً ما يجد فيه القارى صوراً عقلية واجتماعية هي على طرفي نقيض مع الصور التي اكتشفها الاثريون حديثاً للهند المحلية الغابرة ، وفوق ذلك هو مكتوب باللغة « السانسكريتية » التي لم تكن معروفة عند الهنود الأصليين من غير شك والتي هي لغة الآريين وحدهم .

غير أن هذا الكتاب لا يزال هو أقدم المستندات العلمية المعتمدة في تاريخ الديانة الهندية ، وسيظل كذلك — رغم بقينا بأجنيتته — حتى يكشف علماء العاديات ما يحل محله في هذه الأولوية من الكتب المقدسة القديمة .

ولا يعرف المؤرخون بالضبط متى جمعت « الفيدا » وإنما كل الذي ثبت لديهم هو أن بعض أناشيدھا يرجع إلى القرن الخامس عشر قبل المسيح ، وأن صيرورة هذا الكتاب إلى ما هو عليه الآن قد استغرقت عدة قرون ، ويرجع بعض العلماء أنه قد جمع في القرن الثاني عشر قبل المسيح ، وأن تياره القوي لم يستطع أن يحرف العقيدة القديمة من نفوس جميع أبناء الشعب الهندي ، وإنما قد صبغ تلك العقيدة بلونه الجديد كما أسلفنا ، ولم يقو على محوها إلا من نفوس الخاصة المثقفة أما الجماهير فقد ظلت العقيدة القديمة محتفظة بمكائنها في نفوسهم احتفاظاً كان في أول الأمر صامتاً أمام قوة الديانة الأجنبية المنتصرة ، ولكنه أخذ بعد ذلك يقوى ويتعش شيئاً فشيئاً حتى برز منه الشيء الكثير على مسرح الوجود .

لكلمة « الفيدا » عدة معان ، أدقها : « العلم عن طريق الدين بكل ما هو مجهول » . وينجم عن هذا التعريف أن تكون « الفيدا » منبع جميع المعارف الهندية من : دينيات وأخلاقيات ونظريات عقلية أو اجتماعية ، وهي تحتوي أوراذاً تعبدية وأناشيد دينية ، وتعاويذ سحرية نزل بها الوحي من عند الله على قلب « براهما » فتلاها على الناس فاستظفروها وأخذوا يتعبدون بتلاوتها دون أن يكتسبوا أسرارها . وهي مؤلفة من أربع مجموعات تختلف كل واحدة منها عن الأخرى باختلاف الموضوع الذي تعالجه ، فالأولى تسمى « رك يند »

فكرة وحدة وجود ساذجة لم تلبث أن تحولت إلى وحدة الوجود الفلسفية ، تلك الوحدة التي أخذت تقوى مع الزمن حتى عم الاعتقاد بها بلاد الهند كافة . وها هو ذا البيروني يحدثنا عن وحدة الوجود في الديانة الهندية بعد تاريخ « الفيدا » ببضعة وعشرين قرناً فيقول : « قال (باسديو) في كتاب (بكيتا) : أما عند التحقيق فجميع الأشياء إلهية لأن (بشن) جعل نفسه أرضاً ليستقر الحيوان عليها ، وجعله ماء ليفذهم ، وجعله ناراً وريحاً لينمهم وينشئهم ، وجعله قلباً لكل واحد منهم ، ومنح الذكر والعلم وندمهما على ما هو مذكور في يند (١) » .

المعروف الطبقات

كانت طبقات الشعب الهندي في عهد البراهمية الأولى أربعاً ، أولها البراهمية Brahmanes ، وهم الكهنة ثانيها (كساتريا) Ksatriyas ، وبسماها البيروني (كشتري) وهي طبقة الجند . ثالثها طبقة « Vaicyas الفيسيا » وبسماها البيروني « ييسن » وهي طبقة العمال وأصحاب المهن والزراع . رابعها « سودرا Sudras » وبسماها البيروني (سودر) وهي طبقة الأرقاء ، وبما جاء في كتاب البيروني عن هذه الطبقات قوله : « وهذه الطبقات في أول الأمر أربع ، عليها البراهمة قد ذكروا في كتابهم أن ملقتهم من رأس براهم وأن الاسم كناية عن القوة المسماة طبيعة ، والرأس علاوة الحيوان فالبراهمة نقاوة الجنس ، ولذلك صاروا عندهم خيرة الأنس ، والطبقة التي تلومهم (كشتري) خلقوا برعمهم من مناكب براهم ويديه ، ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جداً ، ودونهم (ييش) هم (سودر) خلقوا من رجلى براهم . وهاتان المرتبتان الأخيرتان متقاربتان » (٢)

كتابهم الأول المقدس — الفيدا

ليست « الفيدا » كتاباً هندياً أصلياً وإنما هي كتاب « أندو آري » حمل الفاتحون عناصره معهم إلى وادي البنجاب .

(١) صفحة ١٩ من كتاب « تحقيق الهند من مقولة » مقولة في النقل أو مرذولة « د لابي الرمان البيروني »
(٢) انظر صفحة ١٩ من كتاب البيروني

من هؤلاء العلماء إلى أن الفصحاء ممنوعون قسر إرادتهم عن هذه المحاكمة بحيث أنه لو فرض وجود كتاب آخر يستوى مع القرآن في البلاغة ويصعد إلى طبقته في الفصاحة والاتقان لا يمكن للفصحاء تقليده . وإذا فالعجز عن الاتيان بمثل القرآن في رأى هذا الفريق ليس أصلياً في عقول الفصحاء ، وإنما هو عارض دعا اليه إجلال القرآن . ونحن نرجح أن عناصر الخلاف في هذه المسألة بين علماء المسلمين إنما هي دخيلة جاءت من الديانة الهندية ، ونرجح كذلك أنهم لو لم يتأثروا بهذا الخلاف الهندى لظلوا جميعاً على رأى واحد في هذه المسألة ولأجمعوا على أن القرآن لا يقصد بقوله : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » إلا إعلان العجز الطبعي الأصل ، وإلا لما صح التحدى ، لأنه لا معنى لأن تتحدى شخصاً ثم لا تدعه على حريته ، بل تحاول صرفه عما تحديته فيه وإذا ، فلو دقق هذا الفريق النظر في الآية الكريمة لما ذهب إلى ما ذهب اليه .

هذا ، ولا يفوتنا قبل مغادرة هذه النقطة أن نعلن أن هذه المغالاة من جانب البراهمة في تقديس كتاب الفيدا هي التي حالت بينه وبين التبديل والعبت اللذين وقعا في كتاب البوذية كما سنشير إلى ذلك في جينه

(ينج)

مغرب

استدراك : وقع خطأ في المقال السابق عدد ٢٠٦ بأن وضع سطر أوله : غير أن النار . . الخ في آخر ص ٩٨٦ وصحته في آخر ص ٩٨٧ فوجب التنبيه

Rec-Veda « رك فيدا » وهي تحتوى على الأوراد . والثانية تسمى : « سام فيدا » Saman-Veda ، سامان فيدا ، وتحتوى على الأناشيد . والثالثة « جزر فيدا » Gajus Veda « ياجوس فيدا » وتحتوى على طقوس الضحايا والقرايين . والرابعة « أثارفين - فيدا » Atharvan-Veda « أثارفان فيدا » وتحتوى على التعاويذ السحرية .

هذا ، وإليك ما كتبه أبو الريحان البيروني عن هذا الكتاب : « يذو تفسيره العلم بما ليس بمعلوم ، وهو كلام نسبوه إلى الله تعالى من فم « براهم » ، ويتلوه « البراهمة » تلاوة من غير أن يفهموا تفسيره ، ويتعلمونه كذلك فيما بينهم يأخذ بعضهم من بعض ، ثم لا يتعلم تفسيره إلا قليل منهم . وأقل من ذلك من يتصرف في معانيه وتأويلاته على وجه النظر والجدل ويعلمونه « كشتري » (١) فيتعلمه من غير أن يطلق له تعليمه ولو لبرهمن ، ثم لا يحل لبش (٢) ولا لشودر (٣) أن يسمعه فضلاً عن أن يتلفظ به ويقرأه ، وإن صح ذلك على أحدهما دفعته البراهمة إلى الوالى فعاقيه بقطع اللسان . ويتضمن « فيدا » الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب بالتحديد والتعيين والثواب والعقاب ، ومعظمه على التساييح وقرايين النار بأنواعها التي لا تكاد تحصى كثرة وعسرة ، ولا يجوزون كتابته ، لأنه مقروء بالخان ، فيتخرجون عن عجز القلم وإيقاعه زيادة ونقصاناً في المكتوب . ولهذا فاتهم مراراً (٤) ويروى لنا البيروني كذلك أن أكثر البراهمة يدعون أن « الفيدا » معجزة لا يستطيع أحد مهما أوتي من ذكاء الجنان وقوة البيان أن يأتي بمثلها ، أما أقلهم فيزعمون أن بلغاهم قادرون على الاتيان بمثلها ولكنهم ممنوعون عن ذلك احتراماً له ،

ولعلك - إن كنت ممن لهم إلمام بالمذاهب الاسلامية - تذكر أن هذه المسألة بالذات قد أثرت بين علماء المسلمين ، وأن هذا الخلاف عينه موجود بينهم على الصورة التي وجد عليها بين البراهمة ، فذهبت إلا كثرة الساقطة من علماء المسلمين إلى أنه ليس في طاقة البشر الاتيان بمثل أصغر سورة من القرآن مهما أوتوا من الفصاحة والبلاغة ، وذهبت أقلية من

(١) كشتري (٢) بيش (٣) شودر ، أسماء طبقات في المذاهب القديمة

(٤) راجع صفحة ٦٠ من كتاب البيروني المذكور

أطلب مؤلفات
الاستاذ الشافعي
كتاب
الاسلام الصحيح

من : مكتبة الرشد ، شارع الفلكي (باب الدار)
ومن : المكتبات العربية المشرفة